تفسير النورسي لحمل الأمانة

د. عبد الهادي دحاني(*)

مقدمة:

يستطيع العلم أن يصل معارفه المادية بالإيمان فيعطيه أعماقا معرفية ورؤية كلية للكون والحياة، ويمكِّن الإنسانَ من أداء دوره الرسالي في الوجود. ويستطيع كذلك أن يبدد القلق الإنساني الذي يحتاج إلى الطمأنينة، والتي لا يوفرها إلا الإيمان. ومن ثم يصل المرء إلى قناعة ذكرها الأستاذ بديع الزمان النورسي تفيد بأن العالِم الذي لم يتتلمذ على مائدة القرآن الكريم هو عالِم يخشى عليه من أن يسلك بعلمه طريقا من طرق الفساد في الأرض، فيخون الأمانة التي قلَّده الله عز وجل إياها، وهي الأمانة التي أشفقت من حملها السموات والأرض والجبال، وتجرأ على حملها هذا العالِم البعيد بعلمه عن نور القرآن الكريم، والذي لم يتبصر بهذا النور، لكي يضيء له الطريق ويهديه سواء الصراط، فإذا به يضل في الظلمات وتزل قدمه، فيصدر عن علمه الفساد والتدمير وهلاك الحرث والنسل..

وهذا الصنف من العلماء هو الذي تجرد من الإيمان والأخلاق النابعة منه، وادعى أن كل ما أوتيه كان بعلم عنده، فلازمه تصور كاذب، وصاحبه غرور زائف، فاستحق بذلك النذير من الله عز وجل الذي جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ١٠)، أي قد خاب من جره علمه البعيد عن نور الله تعالى إلى خيانة الأمانة، وجحد نعم الله، فاغتر بعلمه، وتردى به غروره إلى الإشراك بالله.. وفي الكلمة الثلاثين من كلمات الأستاذ النورسي نجد معنى إشفاق السموات والأرض والجبال من حمل الأمانة، دالا على الخوف من الوقوع في الشرك، وذلك في قول الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ (الأحزاب: ٧٢).

(*) أستاذ التعليم العالي - كلية الآداب- جامعة شعيب الدكالي – المغرب. adahhany@hotmail.com

وقد ابتلى الله الإنسان بحمل الأمانة لما في هذا الإنسان من الاستعداد والكمال، وما يرتبط بسعيه ونشاطه انطلاقا من هداية الإسلام وتجاوبه مع الحكمة الإلهية من الخلق، الدالة على قانون الابتلاء الذي هو سنة إلهية وحكمة ربانية. ومن أجل ذلك أودع الله سبحانه وتعالى في الإنسان سر المفتاح الذي يمكنه من سبر أغوار الكون وتسخيره من أجله، وهو ما فيه من "أنا"، الذي بين حقيقته الأستاذ بديع الزمان في قوله البليغ: "اعلم أن مفتاح العالم في يد الإنسان وفي نفسه. فالكائنات -مع أنها مفتحة الأبواب- منغلقة، فالحق سبحانه أودع من جهة الأمانة في الإنسان مفتاحا يفتح به كل أبواب العالم، وطلسما يفتح به كنز خلاق الكون، والمفتاح ما فيك من "أنا". إلا أن "أنا" أيضا معمى مغلق، ومطلسم منغلق، فإذا فتحت "أنا" بمعرفة ماهيته الموهومة انفتح لك الكائنات"(١). وبهذا المفتاح يتمكن الإنسان من السبيل إلى تحقيق الأمانة بحقها، وذلك من خلال الحصول على حقيقة الماهية الإنسانية بمعناها الكوني، الساعية إلى البقاء بالباقي الذي هو الله سبحانه وتعالى، والفانية بفناء أناها الواهمة، أي بتخليص الأنا من الإسمية، لتنظر إلى حقيقتها بمعناها الحرفي وليس الإسمي على حد تعبير بديع الزمان النورسي رحمه الله، أي بمعنى أنها تابعة في وجودها تبعية الحروف في الجملة النحوية إلى الإسم، فهي ليست أصلية الوجود مثل الأسماء، وإنما الإسم الحق هو الله رب الخلق، رب العالمين. ومن ثم تكون الأنا في سياق التدبر والتفكر القرآني حرفا بالمعنى الكوني كما يفسر ذلك بديع الزمان النورسي، أي بمعنى أنها تابعة في وجودها للباقي سبحانه وتعالى.

ويقسم الأستاذ النورسي الأنا إلى قسمين: الأنا المفلح، وهو أنا التزكية، كما ورد في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (الشمس: ٩)، وهو الأنا بالمعنى الحرفي، وهو أنا الخير الذي يوجه التوجيه الصحيح لأداء الأمانة بحقها. وهذا الأنا هو الذي يرى ويتفهم كل ما في الكون، لأن ما يرد عليه من المعلومات يجد ما يصدقه في هذا الأنا الذي يقوم بوظيفة الاستخلاف التعبدي في الكون، وهذا من أداء الأمانة بحقها. أما الأنا الخائب، فهو أنا التدسية، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾، وهو الأنا بالمعنى الإسمي، وهو الذي يخون الأمانة التي ناءت بحملها السموات والأرض والجبال، وهذا هو أنا الشر والعدم، والذي يتولد منه الشرك والضلال. وقد يتضخم هذا

---

(١) النورسي، الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي: كتاب الكلمات: ص٦٣٥-٦٣٦. ترجمة الأستاذ إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر بالقاهرة، الطبعة الثانية، سنة ١٤١٢/١٩٩٢.

الأنا من تزايد غيه حتى يصير شيطانا يبارز الله عز وجل أمره وصنعه، وحتى يسقط في الشرك العظيم، فلا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا، ولو ملئت الآفاق آيات باهرات ما حركت فيه حياة من كثرة ظلمة هذا الأنا المتضخم وشدة رينه.

وهذا الأنا المتضخم الكريه هو الذي ذمه الله تعالى، وطرده من رحمته، حيث قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنْ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنْ الصَّاغِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٠-١٢). وقد ورد النهي في السنة النبوية عن استعمال هذا التعبير للأنا بمعناه الإسمي لما فيه من تشبه بقول إبليس اللعين في تجرُّئه على الله رب العالمين، ومجاهرته بالاستعلاء والغرور والتكبر، وعدم الخضوع لأمر الله بالسجود كما فعلت الملائكة. ففي الحديث: "انتسب رجلان على عهد موسى عليه السلام، فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان، حتى عد تسعة. فمن أنت لا أم لك؟، قال: أنا فلان بن فلان ابن الإسلام. فأوحى الله إلى موسى أن قل لهذين المنتسبين: أما أنت أيها المنتسب إلى تسعة في النار، فأنت عاشرهم في النار. وأما أنت أيها المنتسب إلى اثنين في الجنة، فأنت ثالثهما في الجنة"(١).

إن هذا الأنا الذي يرجع في نهاية الأمر إلى الإسلام، فهو ابن الإسلام أولا وآخرا، هو الأنا بالمعنى الحرفي وليس الإسمي، وهو الأنا الذي يتهم نفسه ولا يضخمها ويزهو بها لتلتحق بالمعنى الإسمي، وهو الذي ينشد الكمال الإنساني في الافتقار إلى الله عز وجل، والاستعانة به، والتوكل عليه، والالتجاء إليه، وإفراده بالسؤال والطلب، والتذلل والخضوع، والتحقق بأنه ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا يملك أحد سواه ضرا ولا نفعا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا. فمن غير الله يملك ذلك؟! إنه الله جل جلاله، مقلب القلوب ومدبر الأمور، وهذه حقيقة العبودية.

تعريف الأمانة

وقبل تناول مفهوم الأمانة عند أستاذنا بديع الزمان سعيد النورسي، كما استمده من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، لابد من تعريفها في مجال التشريع الإسلامي،

---

(١) الحديث رواه النسائي والبيهقي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: رقم١٤٩٢.

حيث يعطيها هذا التشريع مفهوما واسع الدلالة، لتصبح إدراكا قويا من الإنسان للحقوق والواجبات، وللمسؤولية الكاملة أمام الله وأمام العباد، فالكل راع والكل مسؤول عن رعيته، ولا دين لمن لا أمانة له. وإن سبب الشقاء في العيش، وسوء المنقلب في الحياة هو في ضياع الأمانة، وضياعها خيانة لله ولرسوله، والخيانة ضياع للدين والدنيا معا.

والأمانة إذن هي أداء الحقوق والمحافظة عليها، وهي علامة من علامات الإيمان، كما أن الخيانة علامة من علامات النفاق، مصداقا لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أوتمن خان"[١].

ويأمر الإسلام الإنسان بالتحلي بصفة الأمانة، ويسميه أمينا، وهو المحافظ على الأمانة من الضياع والتلف، وبذلك يلتزم طاعة ربه. وأما الخائن فهو الذي ينحرف ويعصى الله، لأنه ضيع الأمانة عندما تخلى عن دينه، فخرج عن فطرته، ونقض الميثاق الذي يربطه بربه. وفي الحديث الذي يرويه أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا ضيعت الأمانة، فانتظر الساعة"[٢]. وفي الحديث أيضا عن أنس بن مالك قال: "ما خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا قال: لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد"[٣].

ومن الآيات الجامعة لأحكام الأمانة ما جاء في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ (النساء: ٥٧). وقد وصف القرطبي هذه الآية بأنها من أمهات الأحكام، حيث تضمنت جميع الدين والشرع، ونبهت على أداء الأمانة والحكم بالعدل. وإن الخيانة هي خيانة أمانة الدين والعلم والحق والنعمة. ولذلك خاطب الله تعالى عباده المؤمنين بأداء الأمانة والحكم بالعدل. ويقول القرطبي في تفسير الآية: "والآية عامة في جميع الناس، فهي تتناول الولاة فيما إليهم من الأمانات في قسمة الأموال، ورد الظلامات، والعدل في الحكومات. وتتناول مَنْ دونهم من الناس في حفظ الودائع

---

(١) الحديث رواه أبو هريرة، وهو في صحيح البخاري: رقم٣٣، و٢٦٨٢ و٢٧٤٩ و٦٠٩٥: إسناده صحيح.

(٢) الحديث رواه أبو هريرة، وهو في صحيح البخاري: رقم ٦٤٩٦: إسناده صحيح، وفيه زيادة: "قال: كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة".

(٣) الحديث رواه أنس بن مالك، وهو في شرح السنة للبغوي: ١٠٠/١، وإسناده حسن. وهو في الترغيب والترهيب: ٧٧/٤، وإسناده صحيح أو حسن.

والتحرز في الشهادات وغير ذلك، كالرجل يحكم في نازلة ما. والصلاة والزكاة وسائر العبادات أمانة لله تعالى"[١].

ومن عظم قدر الأمانة أن يتصف المحافظ عليها والقائم بحقها بالأمين، وهو وصف اتصف به الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم. فهذا خاتم الأنبياء والمرسلين كان قبل بعثته يلقب بالأمين، لما كان يتمتع به من خلق نبيل، ومن حفاظ ورعاية للأمانات، حتى شهد له بذلك العدو قبل الصديق، والبعيد قبل القريب، فكان صلى الله عليه وسلم قبل بعثته أمينا، وبعدها أمينا ونبيا ورسولا. ووصفه ربه عز وجل فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: آية٤).

وهذا نبي الله موسى عليه السلام عرف بالصدق والأمانة قبل أن يبعث نبيا، وكان متمسكا بالعفة، وقد وردت قصته في القرآن الكريم مع المرأتين من آل مدين اللتين سقى لهما وأسعفهما في الخدمة في كامل الترفق والتعفف، فشهد الله تعالى بما ذكرت إحداهما في حقه من خير واستقامة، فقال الله على لسانها: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦).

ومن تمام القيام بالأمانة والصدق فيها أن كلا من النبيين موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما كانا فقيرين، وكانا في فترة غير يسيرة من حياتهما غريبين، ومطاردين من قبل الظالمين من قومهما، لكن هذه المعاناة المتعددة الألوان والأشكال ما زادتهما إلا تمسكا بالقيام بحق الأمانة والحفاظ عليها، وبفضيلة الصدق وصيانة ما استحفظوا عليه، دون أن تدفعهم الحاجة أو الفقر إلى الطمع فيما بين أيديهم من الأمانة والمسؤولية. فلم يسجل التاريخ عنهما أنهما ضيعا ولو شيئا يسيرا من حق الأمانة والمسؤولية، أو تلاعبا في ذلك، وحاشاهما أن يفعلا، لأن خلق الصدق وخلق الأمانة هما جوهر التشريع الإلهي، ولذلك كان اختيار الله عز وجل لرسله وأنبيائه مبنيا على الصدق، وعلى الأمانة التي ناءت بحملها السموات والأرض والجبال، وأشفقن منها.

الإشفاق من حمل الأمانة:

لقد أشفقت السموات والأرض والجبال من القدرة على حمل الأمانة، وهذا يدل على أن حملها يحتاج إلى القوة في الصدق والاستقامة، ويحتاج إلى تقوى الله

(١) القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري: تفسير الجامع لأحكام القرآن: ٢٢١/٥، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠١/١٩٨١.

واستحضار رقابته سبحانه وتعالى.وهذا الإشفاق مرده إلى الخوف من مواجهة السؤال أمام الله تعالى في يوم الحساب. وقد ذكر العلماء أن المرء يسأل في يوم القيامة عن جميع أعماله التي عملها في الحياة الدنيا كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الحجر: ٩٢-٩٣). وعن أبى برزة الأسلمى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقهن وعن جسمه فيما أبلاه"[(١)]. وعن أبي الدرداء قال: "لا أخاف أن يقال لي يوم القيامة يا أبا الدرداء ما عملت فيما جهلت؟ ولكن أن يقال لي يا عديم ما عملت فيما علمت؟"[(٢)].

وقد أنزل الله عز وجل الأمانة، فتلقفتها القلوب المؤمنة، وتلقفتها القلوب الجاحدة:

تلقفتها القلوب المؤمنة، فامتلأت بها إيمانا مع إيمان، وشعرت النفوس بالأمن والإطمئنان، ثم نزل القرآن، فعلم الناس من القرآن والسنة حدود هذه الأمانة وما ينبغي عليهم في شأنها. وقد حدث النبي صلى الله عليه وسلم عن الأمانة بحديثين: الأول في نزولها وتمكنها من القلوب، والتأكيد عليها بنصوص الوحي من القرآن والسنة. والثاني عن رفعها من القلوب، وقلة الأمناء وندرتهم حتى لا يكاد المرء يجد أمينا بين الناس يؤدي الأمانة ويحافظ عليها. وجاء ذلك في حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: "حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين، قد رأيت أحدهما، وأنا أنتظر الآخر، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن، فعلموا من القرآن، وعلموا من السنة. ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال: ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل الوكت، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل المجل، كجمر دحرجته على رجلك فنفط، فتراه منتبرا، وليس فيه شيء. ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله. فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال للرجل: ما أجلده! ما أظرفه! ما أعقله! وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان"[(٣)].

---

(١) الحديث رواه الترمذي: رقم٢٤١٧، والدرارمي:١/١٤٤، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقال الألباني في صحيح سنن الترمذي: صحيح.

(٢) الحديث في جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، للإمام أبي عمر يوسف بن عبد البر القرطبي (ت٤٦٢هـ): ص٢١٤. تقديم محمد عبد القادر أحمد عطا، الطبعة الثانية، سنة١٤١٤هـ/١٩٩٧م، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.

(٣) الحديث رواه حذيفة بن اليمان، وهو في صحيح مسلم: رقم ٢٠٦، كتاب الإيمان، باب رفع الأمانة

ومعنى ذلك أن الله عز وجل منَّ على من شاء من عباده بالإيمان والاستجابة لدعوة نبيه صلى الله عليه وسلم، فكانت الأمانة في قلوبهم بعد أن نزل فيها الإيمان بنزول القرآن الكريم ومجيء السنة النبوية الشريفة، فعلموا منهما، فكان هذا العلم غذاء لقلوبهم وأرواحهم، وأثمر فيها آثارا حسنة، وهي الأعمال الصالحة. وهذا هو مفهوم الأمانة الذي ظهر عند الصحابة رضوان الله عليهم، فهم الذين جمع الله لهم بين الإيمان الصادق والعلم النافع والعمل الصالح.

وتلقفتها القلوب الجاحدة، فإذا بها تنقض العهود، وتتملص من التكاليف، وتهمل الواجبات، وتضيع الحقوق، وإذا بالأمانة تتحول إلى خيانة. وتقبض الأمانة من القلوب، فيصبح الأمين خائنا، ويعز المؤتمن. وينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فلا يزال بقلبه إلا أثرها، كالوكت، وهو لون السواد المتبقي من آثار الجرح أو الكي في الجلد، أو كالمجل، وهو ما يتركه العمل في اليد من آثار تشبه البقع التي تتبقى في الجلد من أثر الحرق أو العمل.. وكل هذا يدل كما جاء في الحديث على ضياع الأمانة، وأنه لم يبق منها إلا بقايا لا خير فيها.

ضياع الأمانة خروج عن الفطرة:

حين يهبط الإنسان إلى أسفل القيم ويترك القيم العليا، يبدأ في التناقض مع فطرته السليمة التي فطره الله عليها، فيلتحق بالمعذبين في الأرض من الذين تحكمت فيهم الأهواء فاتبعوها، ولصقوا بماديات الأرض فلم يرتفعوا عنها، ولو أنهم استمعوا إلى فطرتهم، وأحسوا بمشاعر الإنسانية التي تكتنف جوانحهم لدفعتهم إلى التحرر من قيود الأرض ونزوات الغريزة. إن في قرارة كل إنسان بذورا إنسانية تنزع به نحو القيم العليا والمثل الفضلى، لكن الحصاد السيء لجوارحه والاستعمال الفاسد لها هو الذي انحرف بفطرته عن جادتها وصوابها فأورده المتاعب الدنيوية ومهالك الآخرة. ولو عاد هذا الإنسان الشقي المسكين إلى رشده، واستغفر من خطاياه، وأناب إلى ربه، لوجد الله الكريم توابا رحيما، ولبدل حاله بما يرضيه ويسعده في الدارين، الأولى والآخرة.

إن هناك وهما صارخا يسيطر على الأفئدة الفارغة من الإيمان ومن ذكر الله، فيملؤها بالفراغ والتفاهات والضياع والعبث. إن العصر الذي تعيشه هذه الأفئدة هو عصر العلم

والإيمان من بعض القلوب. وفي صحيح البخاري: رقم ٦٧٣٤، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والمعرفة، ومن المفروض في هذه الأفئدة أن تكون أكثر تبصرة بالحق واهتداء بالحقيقة من التي سبقتها في عصر الظلمات والجهل، وفي العصور التي لم تعرف تقدما علميا ولا ثورة فكرية واجتماعية أفضل مما هو عليه الحال اليوم.

إن المفروض في الناس اليوم أن يزدادوا إيمانا مع تجدد الحقائق العلمية وبيان الإعجاز بكل مظاهره في دين الله، وأن يهتدوا إلى أحسن الأخلاق لأن الحوادث الاجتماعية والفكرية المتعددة أثبتت فشلها أمام أخلاق الإسلام، بل إن الذين ينكرون القيم العليا ويعتبرونها خرافة ليصطدمون بالبرهان الذي يبطل ادعاءاتهم في عصر العلم والتكنولوجيا، الذي لم يستطع رغم التقدم العلمي والتقني الهائل أن يحقق للإنسان السعادة الحقيقية والطمأنينة الإنسانية المنشودة!؟ وفي هذا الصدد يقول محمد قطب: "إن المقياس الحقيقي لعظمة الإنسان ليس هو جهاز الراديو أو التلفيزيون الذي يملكه، ولا السيارة التي يركبها، ولا جهاز الغسيل الآلي، ولا القنبلة التي يدمر بها الحياة على وجه الأرض، وإنما هو أثر ذلك كله في مشاعره وعواطفه، وكيانه النفسي على وجه العموم. فإذا كان يصل به إلى فكرة عن الإنسانية أوسع وأشمل، وفكرة عن الحياة أكبر وأرفع، فقد ارتقى الإنسان حقا بكل ذاك. أما إذا كان يضيق مشاعره إلى نطاق الأنانية المرذولة، ويعكف به على ملذات الجسد الملهوفة، فقد انحطت البشرية رغم هذا البريق الذي يخطف الأبصار.."[(١)]

إن الطبيعة الإنسانية تدل على أن الحياة الإنسانية تنقسم إلى فرد ومجتمع، ولكل شطر من هذين الشطرين ما يهمه في هذا الوجود الذي سخر لخدمة الإنسان، والإنسان فرد وجماعة. ولقد خلق الله- وهو سبحانه العالم بشؤون الخلق- الأسباب التي تهم الفرد من أجل حياته ومصيره، كما خلق الأسباب التي تهم بناء المجتمع الذي يعيش فيه، وما يتطلب ذلك من توجيه وتنشئة وتربية. ومن هنا تفرع الاهتمام بهذه الطبيعة البشرية، وبدأ البحث عن الإنسان الكامل، فنظرت إليه الفلسفة الغربية حسب تصورها الذي ركز في اهتمامه على الجانب المادي على حساب الجانب الروحي، وسجنت تفكيرها في كل ما يتعلق بالحياة الدنيا، دون أن تبصر إلى ما وراء ذلك من الحياة الأخروية أو الحياة الأبدية، والتي أسقطتها من فكرها، فكان نتيجة ذلك أنها لم تستطع

---

(١) قطب، محمد قطب: الإنسان بين المادية والإسلام: ص ٢١٨-٢١٩، دار الشروق، بيروت، ومطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء، الطبعة السابعة، سنة١٤٠٤/١٩٨٣.

أن تصل إلى فهم سليم للإنسان، فعميت بصيرتها عما يكنه الغيب من حصاد للحياة الدنيا في الآخرة، وتعطلت الحواس عن الاشتغال السليم، فإذا بأصحاب هذه الفلسفة تتعطل عندهم آلات الحواس وأدوات التفكر، وفيهم يقول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦). ولا غرابة بعد ذلك أن تصدر نتيجة هذا التصور الفلسفي المادي تصرفات وسلوكات غير سوية، لتنتج عنها المشاكل الاجتماعية والنفسية، ومن ثم المشاكل الاقتصادية والسياسية التي يتخبط فيها العالم الذي لا يؤمن إلا بالمادة والمصلحة.

وأمام هذا التردي في الطبيعة الإنسانية سارع بعض المنقذين في الغرب من تقديم بعض الحلول في شكل نظريات سلوكية وتربوية ومعرفية لإنقاذ الإنسان من مشاكل الانتحار والإدمان والعبث والإفلاس الاجتماعي والأخلاقي، ولكنها كانت حلولا جزئية، ولم ترق إلى معالجة المشاكل الحقيقية، لأن الذي لم يستطع أن يجمع في علاجه لطبيعة الإنسان بين الجسم والروح أو بين العقل والنفس، لا يمكن أن يقدم علاجا شاملا. وفاقد الشيء لا يعطيه، فكيف ينشد الدواء من الطبيب البشري، ويتغاضى ويترك الدواء من الشافي الذي لا شفاء إلا شفاؤه، وهو خالق الداء والدواء، العالم بالأسباب والأحوال، وهو الله الخالق البار ئ، له الأسماء الحسنى؟.

وكيف يستطيع العلماء الذين لا تتجاوز نظرياتهم الجوانب النفسية والمعرفية والاجتماعية إلى الجوانب الروحانية أن تفهم الإنسان الذي هو طين وروح؟. ولا يستطيع الوصول إلى فهم الطبيعة الإنسانية إلا النظريات التي تبنت هذه الثنائية في التحليل والتفكير، وتيقنت بما تكنه النفس الإنسانية من أسرار وحكم، ووراءها تدبير صانع مبدع، هو الخالق لكل شيء في الآفاق وفي الأنفس!..

التصور النوري لحمل الأمانة:

يحدد الأستاذ بديع الزمان النورسي للأمانة التي أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها، معاني متعددة ووجوها كثيرة، ترجع كلها إلى "الأنا" الذي تجرأ على حمل هذه الأمانة حين أشفقت منها الكائنات العظيمة. وينطلق الأستاذ النورسي في تصوره لمفهوم الأمانة التي ابتلي بحملها هذا "الأنا" من منطلق التعبد. فحملها عبادة يتقرب بها العبد إلى ربه، حيث مدار حياة الإنسان فوق هذا الكوكب الأرضي كله على العبادة،

مصداقا لقول الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)، وأكبر أمانة يتحملها الإنسان هي أمانة التحقق بالعبودية، فكلنا عبيد لله، وكلنا رجوع، فالعبيد ما خلقوا إلا للعبادة، والرجوع لابد لهم من الوقوف بين يدي الخالق المدبر لهذا الكون، وهو الله سبحانه وتعالى القائل في محكم التنزيل: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٨٠). وقد لخص الأستاذ بديع الزمان النورسي رحمه الله هذا المدار لحياة الإنسان بين الدنيا والآخرة، من منطلق العبودية إلى الرجوع إلى الله تعالى في كلمة جامعة مانعة، فقال: "إن فطرة الإنسان وما أودع الله فيه من أجهزة معنوية تدلان على أنه مخلوق للعبادة، لأن ما أودع فيه من قدرات وما يؤديه من عمل لحياته الدنيا لا تبلغه مرتبة أدنى عصفور- الذي يتمتع بالحياة أكثر منه وأفضل- بينما يكون الإنسان سلطان الكائنات وسيد المخلوقات من حيث حياته المعنوية والأخروية بما أودع الله فيه من علم به وافتقار إليه وقيام بعبادته.. فيا نفسي! إن كنت تجعلين الحياة الدنيا غاية المقصد، وأفرغت في سبيلها جهدك، فسوف تكونين في حكم أصغر عصفور.. أما إن كنت تجعلين الحياة الأخرى غاية المنى، وتتخذين هذه الحياة الدنيا وسيلة لها ومزرعة، وسعيت لها سعيها.. فسوف تكونين في حكم سيد الأحياء والعبد العزيز لدى خالقه الكريم، وستصبحين الضيف المكرم الفاضل في هذه الدنيا"[١].

العبادة والعلم:

وبالعلم يُعبد الله عز وجل حق العبادة.. وبالعلم يهتدي الإنسان إلى الإيمان بخالقه.. وبالعلم يمتلك مقومات الحضارة الإنسانية، ويعمر الكون في ضوء حضارة توحد الله ويكون قوامها الاستخلاف في الأرض.

ومن أجل تحقيق نهضة علمية مادية، ومن أجل الاستفادة الحقة من تسخير الكائنات الموجودة في الكون لصالح الإنسان، يرى الأستاذ بديع الزمان أنه لابد لهذا الإنسان من الرجوع إلى مصدرين أساسين والاعتماد عليهما كمنطلق رئيس، وهما: القرآن الكريم والكون الفسيح، الكتابان اللذان يفسران حكمة خلق الكائنات، ويكشفان عن المقاصد الربانية في تحميل الإنسان أمانة الاستخلاف. وعلى النقيض من ذلك يُرجع الأستاذ النورسي أسباب انحطاط الأمة الإسلامية وتقاعسها عن امتلاك حقيقي

---

(١) الكلمات: ص٢٠.

للعلوم المادية، وتحقيق نهضة علمية، إلى غياب البعد الكوني في حركتها ونشاطها، وأنها لم تتخذ معالم السنن الكونية قاعدة للنهوض، ومرتكزا للانبعاث، يقول رحمه الله متحدثا عن دور السنن الكونية في النهوض الحضاري للأمة الإسلامية: "إن تفويض الأمر إلى الله في ترتيب المقامات كسل، أما في ترتيب النتيجة فهو توكل. والرضا بقسمته وثمرة سعيه قناعة تقوي من ميل السعي. أما الاكتفاء بالموجود فتقاصر في الهمة. فكما أن هناك طاعة وعصيانا تجاه الأوامر الشرعية المعروفة، كذلك هناك طاعة وعصيان تجاه الأوامر التكوينية. وغالبا ما يرى الأول – مطيع الشريعة والعاصي لها- جزاءه وثوابه في الدار الآخرة. والثاني - مطيع السنن الكونية والعاصي لها- غالبا ما ينال عقابه وثوابه في الدار الدنيا. فكما أن ثواب الصبر النصر، وجزاء البطالة التقاعس والذل والتسفل، كذلك ثواب السعي الغنى، وثواب الثبات التغلب. والعدالة التي لا مساواة فيها ليست عدالة. إن التماثل مدعاة للتضاد، والتناسب أساس للتساند، وصغر النفس منبع التكبر، والضعف معدن الغرور، والعجز منشأ المخالفة، والشغف أستاذ العلم"[(١)].

ما أروعها كلمات جامعة مانعة، إنها لعبارات ذهبية، وبقدر ما هي موجزة بقدر ما تحمل من معان مفيدة كبيرة، وحكم جليلة وفيرة: أليس الشغف بالمعلومات وبالمعارف أستاذا للعلم بحق؟، ألم تثبت التجارب في مجالات المعاملة بأن صغر النفس هو منبع التكبر، وأن الضعف معدن الغرور؟! ولا يلجأ إلى مثل هذه السلوكات الوضيعة إلا قصار الهمم وضعاف العزائم!!..

أمانة الأنا:

إن الله جل جلاله وضع بيد الإنسان أمانة من أعظم الأمانات هي "أنا" الذي ينطوي على إشارات يستدل بها على حقائق أوصاف الربوبية الجليلة وشؤونها المقدسة. وهي أن يكون "أنا" وحدة قياسية يعرف بها أوصاف الربوبية وشؤون الإلوهية.. ويقوم الأستاذ النورسي بتحليل عجيب لهذه الأنا مستعملا منهج المقايسة الذي استعمله علماء السلوك، من أمثال ابن قيم الجوزية، وذلك لبيان المواصفات المستمدة من صنع الله تعالى ومن تدبيره، فاجتمعت في "أنا"، وأهلته لحمل الأمانة..

---

(١) النورسي: كتاب المكتوبات: ص٦١١، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر بالقاهرة، الطبعة الثانية، سنة١٤١٣/١٩٩٢.

ويميز الأستاذ بديع الزمان في مقايسة حكيمة بين الأنا بمعناه الحرفي، وهو الوجه المشرق في تحمل الأمانة، ويدخل في البشارة الربانية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (الشمس: ٩)، وبين المعنى الإسمي، وهو الوجه البغيض للأنا في تحمل الأمانة، الموسوم بالشرك الموهوم، ويدخل في نذير الله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: آية١٠).

وعندما ترد المعلومات من الآفاق الخارجية الى النفس تجد في "أنا" ما يصدّقها، فتستقر تلك المعلومات علوماً نورانية وحكمة صائبة في النفس، ولا تنقلب الى ظلمات العبثية.

وحينما يؤدي "أنا" وظيفته على هذه الصورة، يترك ربوبيته الموهومة ومالكيتَه المفترضة -التي هي وحدة قياس ليس إلاّ- ويفوّض المُلكَ لله وحده قائلاً: ﴿له الملك، وله الحمد، وله الحكم واليه ترجعون﴾، وذلك مصداقا لقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص: ٧٠)، فيلبس لباس عبوديته الحقّة، ويرتقي إلى مقام أحسن تقويم.

ولكن إذا نسي "أنا" حكمة خلقه، ونظر إلى نفسه بالمعنى الإسمي، تاركاً وظيفته الفطرية، معتقداً بنفسه أنه المالك، فقد خان الأمانة، ودخل ضمن النذير الإلهي: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾.

وهكذا فإن إشفاق السموات والارض والجبال من حمل الأمانة، ورهبتهن من شرك موهوم مفترض، إنما هو من هذا الوجه من "الأنانية" التي تُولِّد جميع أنواع الشرك والشرور والضلالات.[1]

ويحذر الأستاذ بديع الزمان من تضخم الأنا حتى لا يؤدي ذلك إلى فساد الكون بتقوية أتباعه الذين يزيدون من تضخيمه، ويمدونه في الغي ثم لا يقصرون، فينظر فيما حوله من الفساد والمفسدين والمزينين له أعماله من شياطين الإنس، فإذا هو يزهو بنفسه، ويزداد غرورا، فيسوغ لأناه فعل كل شيء من إملاءاتها الأنانية، ثم يلتفت إلى أتباعه فيغدق عليهم بفتات أنانيته، فيرضيهم به، ويتم التواطؤ على الفساد والضلال.

وترتبط أسباب ضياع الأمانة كما ترتبط أيضا أسباب الحفاظ عليها عند الأستاذ بديع الزمان بتاريخ البشرية منذ سيدنا آدم عليه السلام، عبر سلسلتين عظيمتين من تاريخ

---

(١) الكلمات: ص٦٣٨.

الإنسانية، وهما: سلسلة النبوة والدين، وسلسلة الفلسفة والحكمة. ويبين كيف شكلت هاتان الحلقتان تيارين كبيرين في حياة البشرية، بدآ جارفين متوازيين، والتقيا في كثير من المحطات التاريخية الإنسانية، وانبثقت عنهما شجرتان متوازيتان أيضا ومتناقضتان، هما شجرة طوبى المباركة، امتدادا لحلقة النبوة، وتفرع من ظلالها الأنا الحرفي، وتفيأت عليه أنوارها. وشجرة زقوم الخبيثة، امتدادا لسلسلة الفلسفة المادية، وتسلل منها الأنا الإسمي، بلفحه ووهجه الذي اكتوت منه البشرية والكون معها.

ولولا الثمار اليانعة الطيبة المتفيئة من شجرة طوبى في بستان الكرة الأرضية ما انصلح حال الكون. فبنضج ثمار هذه الشجرة المباركة تدلت قطوفها دانية عبر أغصانها المتنوعة، فتمخض عنها أكرم الخلق من أنبياء ومرسلين وصديقين وأولياء صالحين، ثم تدلت بعد ذلك فأثمرت عبادا صالحين وخيِّرين، من ملوك وحكام ومسؤولين كرماء وأسخياء وأمناء، ومن ذوي شهامة ومروءة وعفة ونظافة وطهارة، وجمال سيرة وصورة..

أما ثمار شجرة زقوم الخبيثة، فتدلت من أغصانها المتنوعة ظلمات الشرك وغيوم الضلالة والفساد، فتمخض عنها شرار الخلق، من ثمرات الأصنام ومدعي الألوهية، من النماريد والفراعنة والطواغيت، ثم تفرعت أغصانها فتمادى من ثمارها الزقومية الدهريون والملحدون والطبيعيون والماديون، ومن ذوي الفساد والنفاق وسوء الأخلاق...

وتشكل كلتا الشجرتين امتدادا لتلك الحلقتين الأساسيتين في تاريخ البشرية، واللتين يشخصهما الأستاذ بديع الزمان في قوله: "فمتى كانت هاتان السلسلتان متحدتين وممتزجتين، أي في أي وقت أو عصر استجارت الفلسفة بالدين، وانقادت إليه وأصبحت في طاعته، وانتعشت الإنسانية بالسعادة وعاشت حياة اجتماعية هنيئة.. ومتى ما انفرجت الشقة بينهما وافترقتا، احتشد النور والخير كله حول سلسلة النبوة والدين، وتجمعت الشرور والضلالات كلها حول سلسلة الفلسفة... وهكذا فمنشأ هذه الشجرة المباركة، ومنشأ تلك الشجرة الخبيثة، هما جهتا "أنا" ووجهاه، أي أن "أنا" الذي أصبح بذرة أصلية لتلكما الشجرتين، صار وجهاه منشأ كل منهما"[1].

هكذا تبدو الأمانة من خلال تفسير الأستاذ بديع الزمان، لا ينصلح حالها حتى تكون تجارة رابحة مع الله، أي عبودية لله وجندية في سبيله، وأن يبيعها الإنسان لله تعالى

---

(١) الكلمات: ص٦٤٠.

مالكها الحقيقي، ليربح البيع، ويستجيب لخالقه استجابة العبد لسيده الذي يحبه، ويتفانى في خدمته إخلاصا وصدقا، ويعمل على تحقيق رضاه. ويضرب الأستاذ بديع الزمان لصفقة التجارة هاته أروع الأمثلة، ليبين من خلالها كيف يتحول الفاني إلى باق. "فالمال الفاني يجد البقاء، لأن العمر الزائل الذي يوهَب للحي القيوم الباقي، ويُبذل في سبيله سبحانه ينقلب عمرا أبديا باقيا. عندئذ تثمر دقائق العمر ثمارا يانعة وأزاهير سعادة وضاءة في عالم البقاء، مثلما تفنى البذور ظاهرا وتنشق عنها الأزهار والسنابل"(١).

مقارنة بين التصورين القرآني والفلسفي للأنا في حمله للأمانة:

يرجع إخفاق الفلسفة الأخلاقية في الفكر العقلاني المتمرد على القيم، والمتشبت بالأنا الضيق، إلى الاهتمام المبالغ بالأنا الإسمي على حساب الحرفي. ومن هذا المنطلق انتقد الأستاذ بديع الزمان هذا التقسيم للأنا من الإسمية المعتمدة على الفلسفة العقلانية، مبرزا الخلال الموجودة بينها وبين الحرفية المرتكزة على منهج القرآن الكريم. ولابد من الإشارة هنا إلى أن الأستاذ النورسي رحمه الله لا يمقت الفلسفة على الإطلاق، وإنما يخص منها الفلسفة المضرة للإنسان بأفكارها ومناهجها، ويستثني الفلسفة التي تصدر من الحكمة، والتي تخدم الحياة البشرية، وتعين على مكارم الأخلاق والقيم العليا، فهذه لا تتعارض مع القرآن الكريم، بل هي خادمة لتوجيهاته الربانية.

ومن المعلوم أن المنهج القرآني قد هذب هذا الأنا وجرده من اسميته لتنطلق به إلى الحرفية حيث الرحب والسعة في الكونية الأخلاقية. فما الأنا إلا الإنسان ذلك العبد المخلوق المفتقر إلى ربه الخالق والمدبر، فالرب رب والعبد عبد، وبهذه المقايسة تتبين حقيقة النفس وصفاتها، وعظمة جلال الربوبية، وتفرد الرب بالكمال والإفضال. وفي ذلك يقول ابن قيم رحمه الله تعالى مخاطبا الأنا: "وأنت قبل هذه المقايسة جاهل بحقيقة نفسك، وبربوبية فاطرها وخالقها. فإذا قايست ظهر لك أنها منبع كل شر، وأساس كل نقص. وأن حدها الظالمة الجاهلة، وأنه لولا فضل الله ورحمته بتزكيته لها ما زكت أبدا، ولولا هداه ما اهتدت، ولولا إرشاده وتوفيقه لما كان لها وصول إلى خير ألبتة. وأن حصول ذلك لها من بارئها وفاطرها، وتوقفه عليه كتوقف وجودها على إيجاده، فكما أنه ليس لها من ذاتها وجود، فكذلك ليس لها من ذاتها كمال الوجود، فليس لها من ذاتها

---

(١) الكلمات: ص٢٣.

إلا العدم، عدم الذات، وعدم الكمال، فهناك تقول حقا: (أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي)."[١]

ولقد اتفق رأي ابن قيم الجوزية مع رأي بديع الزمان النورسي حين ميز كل منهما بين الأنا في المنهج القرآني والأنا في المنهج الفلسفي، ليحددا بهذا التمييز مراتب الذات والكمال، وقد أدركا أن المدخل إلى هذا الأنا هو المعرفة بالنفس لأنها هي التي تملي عليه ، فإذا ما تحكم الإنسان في نفسه، تمسك الأنا بحرفيته، وصدق الله عز وجل إذ يقول: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٧-١٠). ولا يمكن أن يجد العاقل وراء تضخم الأنا وجهله بنفسه، ونسيان عجزه إلا الفكر المادي، الذي لا يتجاوز بعلمه وبصيرته حدود الدنيا الفانية إلى ما وراءها في الآخرة الباقية، والتي لا يعرف من لذاتها ونعيمها خارج ما حكاه المنهج القرآني وبينه الرسول صلى الله عليه وسلم، في قوله: "فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"[٢]. ولعل انتحال الأنا لصفة الكبرياء وجهله بنفسه هو الذي يدفعه إلى الاستغناء عن خالقه وهو المخلوق.

ولقد ضرب الله لهذا الأنا المغرور والمتكبر مثلا بقارون الذي عجزت العصبة القوية من الرجال الأشداء عن حمل مفاتيح خزائنه، أما الخزائن فلا يعلم بقدرها إلا الله، وقد اغتر هذا الأنا القاروني بعلمه وبقوته، وادعى أن كل ما أوتيه إنما كان بهذا العلم وبهذه القوة، ومن كثرة غروره صار الجهال من حوله يتمنون لو كان لهم من المتاع والزينة مثلما عنده، لكن الله عز وجل أراد أن يبين عجز هذا الأنا المغرور، فخسف به وبكل ما يملك الأرض، فأصبح كل ذلك خبرا بعد عين، فوصلت العبرة للجهلة والمغرورين من أمثاله ومن حوله، فإذا بهم يرجعون عن غيهم وهم يقولون معترفين بعجزهم وبجهلهم: ﴿وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾، وهو المعنى الجميل الذي جاء واضحا في القرآن الكريم، حيث قال الله تعالى في ذلك: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى

---

(١) ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقي: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ١/١٧٠-١٧١. تحقيق محمد حامد الفقي، دار الفكر، بيروت.

(٢) الحديث رواه أبو هريرة، وهو في صحيح البخاري: رقم ٣٢٤٤، وفي صحيح مسلم: رقم ٢٨٢٤، وفيهما: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولاخطر على قلب بشر، فاقرؤوا إن شئتم: (فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) سورةالسجدة: آية١٧.

فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنْ الْمُنْتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا * وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص: ٧٦-٨٣).

كيف يغتر هذا المخلوق، فتتجبر فيه أنانيته، وينسلخ من فطرته، وينسى بأنه مخلوق، وبأنه هو وما يملك منة ونعمة من الله خالقه، تثبت بالشكر، وتزول بالكفر. وهذا قارون دفعه غروره إلى الكفر بنعم الله عليه فأزالها عنه. فأعطى الله تعالى به النموذج من الأنا الذي عميت بصيرته واحتار قلبه، ولم يشهد عقله بالمعاد ولا بالتوحيد، لأنه لم يهتد بالوحي. ولهذا جعل الله سبحانه وتعالى إنكار المعاد كفرا به سبحانه، لأنه إنكار لقدرته ولإلهيته، وكلاهما مستلزم للكفر به، مصداقا لقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (الرعد: ٥-٦). قال ابن قيم الجوزية رحمه الله: "وفي الآية قولان: أحدهما: إن تعجب من قولهم ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فعجب قولهم! كيف ينكرون هذا، وقد خلقوا من تراب، ولم يكونوا شيئا. والثاني: إن تعجب من شركهم مع الله غيره، وعدم انقيادهم لتوحيده وعبادته وحده لا شريك له، فإنكارهم للبعث، وقولهم ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أعجب. وعلى التقديرين، فإنكار المعاد عجب من الإنسان، وهو محض إنكار الرب والكفر به، والجحد بإلهيته وقدرته وحكمته وعدله وسلطانه"(١). وهذا الإنكار للمعاد هو الذي يدفع

---

(١) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين: ١٢٦/١

بالإنسان إلى التجرؤ على المعصية واقتراف المخالفات، لأن الجزاء غير حاضر في قلبه الذي عميت بصيرته، فلا يبصر خارج حدود الدنيا الضيقة، ليرى أن ما في هذه الدنيا يفنى وما عند الله باق، وأن اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل، وفيه تعرض كل المعروضات، لا تخفى منها على الله خافية. ولكن أنَّى لمن كانت الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه أن يدرك ذلك؟ والله تعالى يقول: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٤).

إن الطريق إلى التوازن النفسي والطمأنينة هو أن يشعر الإنسان بالعجز أمام خالقه وبالافتقار إليه، وليس أمام الناس، فلو اجتمع الناس كلهم على ضر مخلوق من مخلوقات الله تعالى لن يتمكنوا من ذلك إلا بما يكتبه الله عز وجل على ذلك المخلوق، وكذلك الأمر في مجال النفع لا يتم إلا بمشيئة الله. وفي المكتوب التاسع والعشرين من رسائل النور إشارة لطيفة وحكيمة إلى ما ترشد إليه الآية الكريمة من قول الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ (النساء: ٧٨)، وذلك ما تقتضيه النفس دائما أنها تنسب الخير إلى ذاتها، مما يسوقها هذا إلى الفخر والعجب. فعلى المرء في هذه الخطوة أن لا يرى من نفسه إلا القصور والنقص والعجز والفقر، وأن يرى كل محاسنه وكمالاته إحسانا من فاطره الجليل، ويتقبلها نعما منه سبحانه، فيشكر عندئذ بدل الفخر، ويحمد بدل المدح والمباهاة. فتزكية النفس في هذه المرتبة هي في سر هذه الآية الكريمة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [1]. فكمال النفس في معرفة عدم كمالها، وقدرتها في عجزها أمام الله، وغناها في فقرها إلى الله سبحانه وتعالى.

وفي كلمتي الأخيرة في موضوع تفسير الأستاذ بديع الزمان النورسي لحمل الأمانة من قبل "الأنا"، ذلك المخلوق الكوني الذي لم يجرؤ غيره على اقتحامها والنهوض بتكاليفها.. أقول: إن في هذا التفسير لتلميذ القرآن ما يدل الباحثين في شغف على المزيد من البحث في خبرة الأستاذ بديع الزمان الواسعة والنافذة بنفسية الإنسان من خلال تعامله مع القضايا التي شغلت مصير هذا الإنسان في الوجود، وقد بنى تصوره القرآني لمعالجتها على التأمل في الذات الإنسانية، حيث تدور كلها حول أمانة الاستخلاف في الأرض، طبقا لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠).

---

(١) النورسي: المكتوبات: ص٥٩٦.

إن هذا المنطق هو الذي يفسر لنا مكانة الإنسان في رسائل النور التي جعلته محور خدمتها انطلاقا من توجيهات القرآن الكريم، لأنه حمل الأمانة بكل أعبائها وأشكالها، وخاض غمارها في الأنفس وفي الآفاق. وقد ركزت رسائل النور على تحديد غايته من الوجود، فحصنته بهذه التوجيهات الربانية من الفكر الفلسفي الذي يدور حول تمجيد الأنا إلى الدرجة التي جعلت منه صنما يعبد من دون الله، كما حصنته من أن يتحول إلى صنم يمهد الطريق لأصنام أخرى اتخذها الإنسان أربابا من دون الله، وهي أصنام الأهواء والشهوات كالمال والجاه والسلطة وغيرها من مفاتن الدنيا. اهـ

لائحة المصادر والمراجع:

- البخاري، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة الجعفي (ت ٢٥٦): صحيح البخاري ومعه من هدي الساري، شرح غريب صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، تحقيق خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤٢٥.
- برتراند راسل: حكمة الغرب، ترجمة فؤاد زكرياء، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، عدد٧٢، سنة١٤٠٤/١٩٨٣.
- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج (٥٩٧هـ): صيد الخاطر، تحقيق حامد أحمد الطاهر، دار الفجر للتراث بالقاهرة، الطبعة الأولى، سنة١٤٢٤/٢٠٠٣.
- حوى، سعيد: المستخلص في تزكية الأنفس، دار السلام للطباعة والنشر، بيروت لبنان، الطبعة الثالثة، سنة١٤٠٥/١٩٨٥.
- أبوحيان الأندلسي، محمد بن يوسف (٧٤٥هـ): تفسير البحر المحيط ، تحقيق عادل عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، طبعة سنة ١٩٩٣/١٤١٣.
- ابن قدامة المقدسي، أحمد بن محمد بن عبد الرحمان (٧٤٢هـ): مختصر منهاج القاصدين، نشر المكتب الإسلامي، بيروت لبنان، الطبعة الرابعة، سنة ١٣٩٤.
- القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبد البر محمد بن أحمد الأنصاري(٤٣٢هـ):
  * الجامع لأحكام القرآن، دار الفكر، بيروت لبنان، بدون تاريخ.
  * جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله: الأمام تقديم وتعليق محمد عبد القادر عطا، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، سنة١٤١٨/١٩٩٧.
- فريد، الأنصاري: مفاتح النور، شركة نسل للطبع والنشر بإستامبول، طبعة سنة٢٠٠٤.
- فؤاد، محمد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، المكتبة الإسلامية لمحمد اوزدمير بإستامبول، طبعة سنة ١٩٨٢.

- قطب، محمد:
* الإنسان بين المادية والإسلام، دار الشروق، بيروت لبنان، ومطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء، الطبعة السابعة، سنة١٤٠٤/١٩٨٣.
* التطور والثبات في حياة البشر، دار الشروق، بيروت لبنان، الطبعة الرابعة، سنة١٤٠٠/١٩٨٠.

- ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي(٧٥١هـ):
* زاد المعاد في هدى خير العباد، تحقيق الأرنؤوط شعيب وعبد القادر، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السادسة، سنة ١٤٠٤ هـ.
* الفوائد، بدون طبعة ولا تاريخ.
* مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.

- كولن، محمد فتح الله: النور الخالد، ترجمة أورخان محمد علي، دار النيل للطباعة والنشر بالقاهرة، الطبعة الأولى، سنة ١٤٢٨/٢٠٠٧.

- مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١): صحيح الإمام مسلم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى سنة١٤٢١، طبعة مرقمة الكتب والأبواب والأحاديث حسب المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي.

- النورسي، بديع الزمان سعيد: كليات رسائل النور، ترجمة وتحقيق الأستاذ إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر بالقاهرة، الطبعة الثانية، سنة١٤١٢/١٩٩٢:
* الكلمات- المكتوبات- اللمعات- الشعاعات-الملاحق- إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز- المثنوي العربي النوري- صيقل الإسلام.
* النظرة القرآنية للإنسان من خلال رسائل النور: المؤتمر العالمي الخامس لبديع الزمان سعيد النورسي، شركة نسل للطبع والنشر، استامبول، الطبعة الأولى، سنة١٤٢٣/٢٠٠٢.